

صيد الخاطر

340 - _ فصل : يغوص البحر من طلب اللاالي .
ما يتناهى في طلب العلم إلا عاشق العلم و العاشر ينبغي أن يصبر على المكاره .
و من ضرورة المتشاغل به البعد عن الكسب و مذ فقد التفقد لهم من الأمراء و من الإخوان
لazمهم الفقر ضرورة .
و الفضائل تنادي { هنالك ابتلي المؤمنون و زلزلوا زلزاً شديداً } .
فكلما خافت من ابتلاء قالت : .
(لا تحسب المجد تمرا أنت آكله ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا) .
و لما آثر أحمد بن حنبل به طلب العلم و كان فقيراً أبقي أربعين سنة يتشارع به و لا
يتزوج فينبغي للفقير أن يصابر فقره كما فعل أحمد .
و من يطيق ما أطاق ؟ فقد رد من المال خمسين ألفاً و كان يأكل الكامخ و يتآدم بالملح .
فما شاع له الذكر الجميل جزافاً و لا ترددت الأقدام إلى قبره إلا لمعنى عجيب .
فيما له ثناء ملأ الآفاق و جمالاً زين الوجود و عزاً نسخ كل ذل .
هذا في العاجل و ثواب الآجل لا يوصف .
و تلمح قبور أكثر العلماء لا تعرف و لا تزار ترخصوا و تأولوا و خالطوا السلاطين فذهبت
بركة العلم و محى الجاه و وردوا عند الموت حياض الندم .
فيما لها حسرات لا تتلافى و خسراً لا ينجبر و كانت صحبة اللذات طرفة عين و لازم الأسف
دائماً .
فالصبر الصبر أيها الطالب للفضائل فإن لذة الراحة بالهوى أو بالبطالة تذهب و يبقى
الأسى و قال الشافعي رضي الله تعالى عنه : .
(يا نفس ما هو إلا صبر أيام ... كأن مدتها أضغاث أحلام) .
(يا نفس جوزي عن الدنيا مبادرة ... و خل عنها فإن العيش قدامي) .
ثم أيها العالم الفقير أيسرك ملك سلطان من السلاطين و أن ما تعلم من العلم لا تعلمه ؟
كلاً ما أطن بالمتيقظ أن يؤثر هذا .
ثم أنت إذا وقع لك مستحسن أو معنى عجيب تجد لذة لا يجدها ملتذ باللذات الحسية .
فقد حرم من رزق الشهوات ما قد رزقت و قد شاركتهم في قوام العيش و لم يبق إلا الفضول
الذي إذا أخذ لم يقدر .

ثم هم على المخاطرة في باب الآخرة غالباً و أنت على السلامة في الأغلب .
فتلمح يا أخي عواقب الأحوال و اقمع الكسل المثبط عن الفضائل .
فإن كثير من العلماء الذين ماتوا مفترطين يتقلبون في حسرات و أسف .
رأى رجل شيخنا ابن الزغواني في المنام فقال له الشيخ : أكثر ما عندكم الغفلة و أكثر
ما عندنا الندامة .

فأهرب وفكك إِنْ قَبْلَ الْحَبْسِ و فسخ عقد الهوى على الغبن الفاحش .
واعلم أن الفضائل لا تناول بالهوى و أن يسير التغريط يشين وجه المحاسن .
فالبدار البدار ونفس النفس يتتردد وملك الموت غائب ما قدم بعد و انهض بعزم عازم .
(إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ... ونكب عن ذكر العاقب جانبا) .
(و لم يستشر في أمره غير نفسه ... و لم يرض إلا قائم السيف صاحبا) .
وارفض في هذه العزيمة الدنيا و أربا بها فبارك إِنْ لِأَهْلِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَا هُمْ فَنَحْنُ الْأَغْنِيَاء
وهم الفقراء .

كما قال إبراهيم بن أدهم : [و لو علم الملوك و أبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا
عليه بالسيوف] .

فأبناء الدنيا أحدهم لا يكاد يأكل لقمة إلا حراماً أو شبهة .
وهو وإن لم يؤثر فوكيله يفعله و لا يبالى هو بقلة دين وكيله .
وإن عمروا دارا سخروا الفعلة و إن جمعوا مالا فمن وجوه لا تصلح ثم كل منهم خائف أن يقتل
أو يعزل أو يشتتم فعيتهم نقص .
و نحن نأكل ما ظاهر الشرع يشهد له بالإباحة و لا تخاف من عدو و لا ولاتنا تقبل العزل .
والعز في الدنيا لنا لا لهم و إقبال الخلق علينا و تقبيل أيديينا و تعظيمنا عندهم كثير .

و في الآخرة بيننا و بينهم تفاوت إن شاء إِنْ شَاءَ إِنْ تَعَالَى .
فإن لفت أرباب الدنيا أعناقهم يعلمون قدر مزيتنا .
وإن غلت أيديهم عن إعطائنا فلذة العفاف أطيب و مرارة المحن لا تفي بالأخذ و إنما هو
طعام دون طعام و لباس دون لباس و إنها أيام قلائل .

والعجب لمن شرقت نفسه حتى طلب العلم إذ لا يطلبه إلا ذو نفس شريفة كيف بذل لبذل من لا
عزة إلا بالددنا نير و لا مفخرة له إلا بالمكانة و لقد أنسدني أبو يعلى العلوى : .
(رب قوم في خلائقهم ... عرر قد صيروا غررا) .
(ستر المال القبيح لهم ... سترى - إن زال - ما ستر) .
أيقظنا إِنْ من رقدة الغافلين و رزقنا فكر المتيقظين .

و وفقنا للعمل بمقتضى العلم و العقل إنـه قرـيب مـجـيب